في حاضرة التاريخ والحضارة:

روعة العيد تحكيها المدرهة

معاذ الخميسي

■ عادت المدرهة من جديد إلى أجواء الفرحة العيدية .. وعادت معها أصوات جميلة تصدح في أحواش صنعاء القديمة .. تتغنى بالحجيج في أحيان كثيرة .. وتبكي فراقهم في أوقات .. وتتمنى لهم العودة سالمين غانمين بعد أن يكونوا قد أدوا مناسك الحج .. وفازوا بالرضا .. وعادوا كما ولدتهم أمهاتهم.

عيد استثنائي

● روعة المشهد تحكيها تلك اللحظات الأكثر من جميلة في حاضرة التاريخ والحاضرة «صنعاء القديمة».

الجميع هناك يعتبرون عيد الأضحى المبارك الذي يعيشون أيامه الفرائحية .. عيداً استثنائياً .. خاصاً .. فريداً لأنه أعاد إلى الأطفال الابتسامة في زمن ما عادت ترتسم على الشفاه .. وما عاد لها وقع وصدى .. ولأنه أفرح قلوب الكبار والصغار في أقل الأحوال بأهازيج المدرهة التي ذهبت منذ أعوام دون أن تعود .. وحين ظن الجميع أن المدرهة حكاية قديمة أصبحت تروى للصغار .. عادت من جديد ليعايش لحظاتها الذين حرموا منها.

● أصبح للعيد مذاق خاص .. ومختلف عن أعياد سابقة .. فهناك في أحواش المدينة التاريخية يتجمع الصغار والنساء صباحاً وعصراً .. فيما يحضر الرجال عند الليل من بعد صلاة المغرب والجميع يتأرجحون مع أصوات سلاسل المدرهة ورياحها الصاعدة والهابطة .. وأصوات جميلة ترتفع في السماء بنغمات مختلفة تشدو بكلمات موروثة خاصة بالمدرهة فيها الكثير من العبارات التي تهز الوجدان وتحرك المشاعر .. تبكي القلوب لفراق الحجاج .. وتفرحها فرحاً لهم بأداء شعائر الحج.

أكثر الحارات شهرة بالمدرهة

● حارة العلمي بصنعاء القديمة هي أكثر الحارات شهرة «بالمدرهة» .. ففي الحارة كثير من الأحواش التي تقام فيها «المداره» .. والحارة هي الوحيدة التي شهدت إقامة أكبر مدرهة يمنية منذ أكثر من أربعين عاماً وصل ارتفاعها إلى سبعة أمتار واستمرت لأكثر من ثلاثة أشهر وتم نصبها في ساحة كبيرة ببستان العلمي .. والحارة أيضاً مشهورة بمداره ثلاث .. الأولى وهي التي استمرت حتى سنوات قريبة ماضية، وكانت تنصب في «حوي» بيت الغرباني والثانية في «حوي» بيت الروضي، والثالثة في بيت الهبل..

كما أن حارة العلمي اشتهرت بإقامة المراسم التوديعية البهيجة للحجيج والمميزة بالتسابيح وبالموشحات وبالتدريه.

حسين الهبل .. الصوت العذب

عندما تسأل عن المدرهة .. وأيامها الجميلة .. وروعة أصواتها .. لابد وأن يأتي الجواب مقروناً باسم رجل اشتعل رأسه بياضاً .. وأصبح طاعناً في السن .. لكنه مازال بشوش الوجه .. عذب الصوت .. تطل من تقاطيعه أنوار البهجة.

اسمه .. أو كما يطلقون عليه الحاج/ حسين محمد الهبل .. ظل مرتبطاً إلى اليوم في أذهان الكبار والصغار بصوته الجميل وبإجادته التدريه .. حتى أنه كان سبباً في تجميع أناس كثيرين من حارات عدة يقصدون مدرهة العلمي ليستمتعوا بصوته وبطريقته المنفردة في التدريه.

الوالد حسين الهبل .. عاد من جديد في هذا العيد إلى المدرهة .. وإلى ذكريات الماضي .. خاصة وله اثنان من أحفاده غادرا إلى مكة لأداء مناسك الحج فكانت الفرحة كبيرة بعودة المدرهة .. وعودة حسين الهبل بصوته الجميل ليثير الشجن!!

المدرهة .. تاريخ لا ينسى!!

● «الثورة» التقت الوالد/ حسين محمدالهبل الذي تحدث عن الذكريات الجميلة للمدرهة وأيامها التي لا تنسى.

يقول : ارتبطت علاقتنا بالمدرهة من أيام الصغر .. وأتذكر في صغري أنني ذهبت للتدريه بجانب بيت الإمام .. وحينها كان الجمع الكبير يلفنا والجميع يرددون معنا كلمات المدرهة.

واستمرت علاقتي بالمدرهة في كل عيد ومع كل حاج يذهب إلى بيت الله الحرام.

وأتذكر أننا نصبنا مدرهة كبيرة لم تشهد لها صنعاء مثيلاً حتى اليوم ونصبناها في البستان الخاص بنا قبل أربعين عاماً عندما ذهب والدي محمد الهبل للحج ،وتلك المدرهة هي الأكبر وصل طولها إلى ٦ أو ٧ أمتار وظلت لمدة ثلاثة أشهر وما زالت ذكراها عالقة في الأذهان حتى اليوم لأنها كانت تجمع حشداً كبيراً جداً وتميزت بأصوات من كانوا يتولون التدريه وبطولها وكبرها ومداها الذي كان يثير الخوف عند البعض ممن كانوا يخافون الطلوع عليها إلا إذا كانت مسافة التدريه قصيرة.

فرق كبير بين مدرهة اليوم ومدرهة الأمس

● وعن آخر مدرهة شارك فيها قال الحاج/ حسين الهبل نصبنا مدرهة أخرى كبيرة عند ذهاب أخي علي الهبل وكريمتي للحج قبل حوالي عشرين عاماً ومنذ ذلك الوقت استمرت المداره في صنعاء القديمة ولكن بشكل مختصر ومحدود جداً لسنوات قليلة ثم اختفت.

وعن المداره التي تم نصبها في هذا العيد قال:

كنت أنا وابن أخي علي حمود الهبل ندرّه وكانت المدرهة كبيرة ومستوى المد طلوعاً ونزولاً كبير جداً حتى أننا كدنا نلتف بشكل دائري على المدرهة وفي تلك اللحظة انقطع السلس من اتجاه و واحد وكدنا نهوي على الأرض وربما يواجه أحدنا الموت و لكن الله كان لطيفاً بنا فأمسكنا بالسلس الآخر الذي ظل مثبتاً وو صلنا ونحن متشبثان به الى الأرض.

المدرهة تثير الشجن

● الحاج عبدالله الدريبي يتذكر الأيام الجميلة للمدرهة بالقول: كانت أياماً لا تنسى يوم أن كنا نستمتع بالمدرهة ، نحن كرجال من بعد صلاة العشاء وحتى ساعات متأخرة من الليل تصل الى الثانية عشرة وأحياناً الواحدة ونحن ندّره و نتذكر الحجاج بالكلمات التي كانت تثير الشجن في قلوبنا..

وكان النهار كاملاً صباحاً وعصراً مخصصاً للنساء والأطفال وكان الاحترام كبيراً جداً فمن المستحيل أن يطل أحد الشباب أو الصغار على الحوي التي فيها المدرهة أثناء تواجد النساء، وهذا فقط يؤكد مدى الاحترام والتربية الصحيحة التي أصبحنا نفتقدها كثيراً هذه الأيام.

ويضيف الدريبي:

جميل جداً أن يكون هناك توجه لإحياء المدرهة التي أعتبرها موروثاً شعبياً يمنياً يستحق الاهتمام.

كسوة المدرهة.. والناقوس

● أما الأخ لطف العبادي فيتحدث عن المدرهة ومراسم اقامتها بالقول: تنصب المدرهة في أجو اء ممزوجة بالفرحة الغامرة بالعيد.. و بالحزن والشجن لفراق الحجاج.. و هناك شيء خاص بالمدرهة يسمى الكسوة حيث يوضع على جانبي المدرهة من أعلى الشال أو المصون في دلالة على أن ذلك هو لباس الحاج تركه واكتفى بملابس الاحرام حتى يعود، كما كان للمدرهة صوت جميل بوجود «الناقوص» الذي كان يعطي صوتاً جميلاً أثناء التأرجح مع أصوات المنشدين بكلمات التدريه وأشهر من كان يقوم بالتدريه الحاج حسين الهبل و عبدالكريم العمري وعبد الله حدنه وعلي حمود الهبل.

لم يكن للمدرهه طعم إذا لم يكن الحاج من الحارة

● ويضيف الأخ يحيى الهبل مما عرفه عن المدرهة بالقول:

أحياناً لم يكن للمدرهة طعم اذا لم يكن هناك حاج ذهب الى مكة من نفس الحارة، لأن أجمل ما في المدرهة تذكر الحاج والتحدث عنه بكلمات قوية المعنى تأتي بشكل أهازيج وتسابيح، وحقيقة نحن لايمكن أبداً أن ننسى المدرهة وما تشكله من فرحة للأطفال والنساء والرجال وأيضاً ما تثيره من حزن على فراق الحجاج.

أساسيات وداع الحجيج لم تتوارَ

● العقيد عبدالله محمد حسن الحورش يجمع الماضي بالحاضر حين يتذكر روعة المدرهة وأيامها.. ويعرج على فكرة إحيائها مجدداً بشيء من الحزن عندما يتذكر أخيه الذي غادر الى مكة لأداء مناسك الحج.

قال عبدالله: الماضي جميل والمدرهة موروث ارتبطنا به كثيراً وكدنا نخاف أن لا ترتبط به الأجيال القادمة ولكن خوفنا تبدد بإعادة إحياء المدرهة في هذا العام..

ورغم أن كثيراً من العادات والتقاليد التي عرفناها قد توارت إلا أن الأشياء الأساسية المرتبطة بالحجيج مازالت موجودة فقبل أيام ذهب أخي الى الحج وقمنا بتوديعه على نفس الطريقة السابقة بداية بالأذان عند خروجه من المنزل ومن ثم مرافقته بالتسبيح حتى المطار ومروراً بإقامة المدرهة وانتهاء بالخروج لاستقباله عند عودته بالتسابيح والاهازيج.

سيدة: زمن المدرهة ذهب

● امرأة طاعنة في السن من نساء حارة العلمي اسمها سيدة تقول: إن زمن المدرهة ذهب ولن يعود، واذا كانت المدرهة قد عادت فلن تعود كما كانت عليه في الوقت الماضي عندما كانت القلوب كما تقول «مزقرعة» أي فرحانة وكان الكبار قبل الصغار يطيرون فرحاً و كل شيء يحكي الفرحة والسعادة دون أي تصنع.. أما اليوم وإن عادت المدرهة فالقلوب أصبحت حزينة ،وتتذكر الحاجة سيدة ذلك الزمن بعد أن تنتزع تنهيدة ألم وتقول: كنا نجتمع بعد عصر كل يوم في الحوي والتي تمتلئ بالنساء والفتيات وتبدأ التدريه بالدور وبصوت يجاوبه صوت آخر وأصوات من الحاضرات، وكنا نقضي أياماً جميلة وكثيراً ما كنا نبكي أثناء التدريه وبالأخص إذا كان الحاج قريباً أو عزيزاً فتجد النساء يذرفن الدموع على أصوات المدرهة والتدريه حتى يعود الحاج..

جميل أن تعود المدرهة بعد فترة انقطاع كبيرة، ولكن ما شاهدته الآن ليس كما كان زمان .. فمدرهة اليوم صغيرة جداً وليست كما التي كنا ننصبها ولا تتيح لمن يطلع عليها أن يمد في التدريه بمسافات طويلة وبطول شاهق وإذا قام بالتدريه عليها شخصان لهما بنية قوية أعتقد أنها ستنقطع.

كدت أموت بسبب المدرهة

● و يذكر الحاج حسين الهبل بعض المواقف الخطرة أثناء التدريه بالقول: الخطورة كانت موجودة رغم أن المدرهة تنصب بشكل مؤمن ، وأتذكر ذات مرة

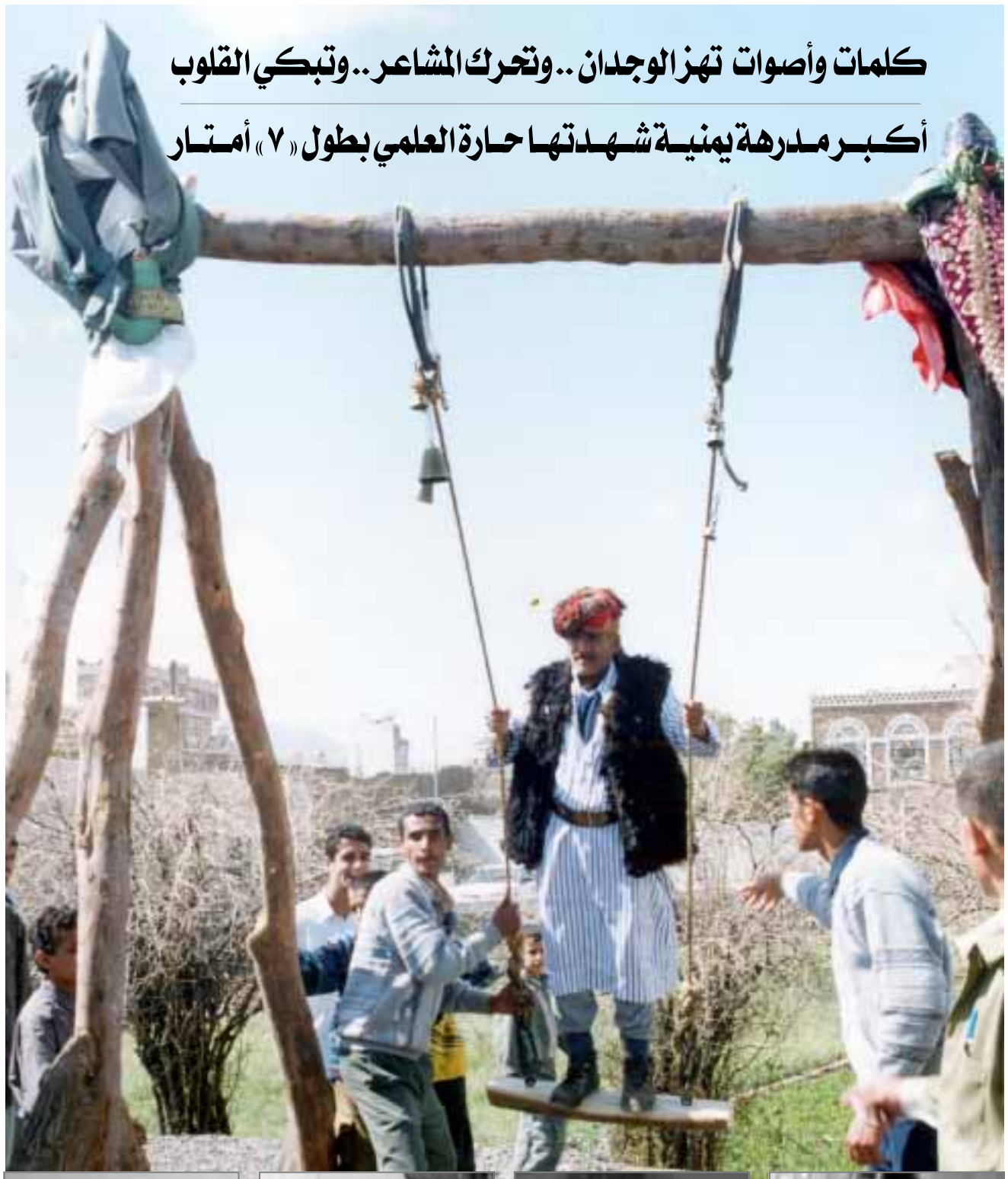

كلمات وأصوات تهز الوجدان .. وتحرك المشاعر .. وتبكي القلوب

أكبر مدرهة يمنية شهدتها حارة العلمي بطول «٧» أمتار

حسين الهبل:

فرق كبير بين مدرهة الأمس واليوم!

عبدالله الدريبي:

أيام المدرهة تثير الشجن

لطف العبادي:

المدرهة لها كسوتها وناقوسها الجميل!

يحيى محمد:

المدرهة لها فرحة وحزن

عبدالله الحورش:

أساسيات المدرهة ووداع الحجيج لم تتوارَ